افتتاحية العدد

مكاشفات القراءة المبدعة

تعد الكتابة المبدعة أياً كان جنسها الفكري أو الأدبي أو العلمي أو الإعلامي أو الصحفي نوعاً من المعرفة... وهي معرفة تتكامل بالنواحي الجمالية في الأدب والنقد، وفي كليهما تقدم المنهج والفكرة اللذين يدلان على موهبة الكاتب وأصالته.

فالمبدع الذي يعيش في وسط ثقافي واجتماعي واقتصادي يؤثر فيه ويتأثر به، لأن أي إبداع لا يمكن أن يكون مشروطاً بالذات المبدعة فحسب، وإنما عليه أن يكون منتمياً لزمان ما ومكان ما، ما يعني التصاق الشرط الذاتي للموهبة بالشرط الموضوعي الذي يزداد ارتقاءً بالمناهج والتقنيات والأفكار المفيدة.

ثم إن النص الإبداعي الذي يلتصق بصاحبه ومشاعره ومقاصده والوسط الذي ينشأ فيه إنما يحقق فعاليته بوساطة قراءة ناضجة واعية ومنفتحة على الثقافات والتقنيات المتطورة، ولاسيما إذا كانت بعيدة عن الهوى والتشفي والانحراف و...

وفي ضوء ما تقدم فثمة اختلاف واسع حول المشهد الثقافي والأدبي والنقدي على الساحة الوطنية والقومية، وهو اختلاف يلحق كل الإنجازات التي شهدتها هذه الساحة، في الوقت الذي لحقها كثير من التحولات في النظريات والمناهج والمدارس الأدبية والنقدية.

ولا مراء في أن كثيراً منا لمس تلك الشكوى المُرَّةَ من تقصير النقد، وعدم قدرته على مواكبة الإبداع الذي يغرق الساحة الوطنية والقومية والإنسانية.

ولكني لست من أولئك الذين ينظرون إلى القضية من وجهة نظر أحادية، أو من وجهة نظر الإيديولوجيا الخاصة. فالتجربة الفنية والنقدية والأدبية التي شهدتها الأوساط الإبداعية السورية في تسعينيات القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين تؤكد ثراء هذه التجربة، وإن كانت متفاوتة في جودة النصّ الأدبي أو الفني أو النقدي أو الثقافي سواء كان هذا النص مترجماً أم أصيلاً في العربية.

ومرة أخرى أشدد على مبدأ الاختلاف في الكتابة لأن الاختلاف أساس الإثراء والارتقاء، ومن ثم أساس الإنتاج المعرفي والفني والنقدي... ما يعني أن الاختلاف في الرأي دليل حيوية ونضج... ومن هنا تكمن قيمة القراءات المختلفة التي تتأثر بموهبة الكاتب وثقافته وحالته، ومن هنا تتعدد القراءات للقارئ الواحد في أزمنة مختلفة وأمكنة مختلفة، ومن ثم تنفتح على تأويلات متنوعة، ما يعني أنه لا يجوز لنا أن نقرأ النص وفق تقاليد ثابتة وتقنيات واحدة ومناهج واحدة... وحين يكون للنص –أي نص– رسالة ما يهدف إليها صاحبها فإن القارئ يمكنه أن يحمّل هذا النص رؤى جديدة ورسائل جديدة تبعاً لرؤاه الذاتية والمعرفية. والنص العظيم هو الذي ينفتح على تلك الرؤى والتأويلات، والنص الإبداعي الحقيقي يتجاوز الزمان والمكان إلى أفق غير محدود، أما النص الضعيف الجامد فإنه ينغلق على نفسه وصاحبه مهما استثمر القارئ موهبته والنظريات المعرفية والنقدية والفنية في قراءته....

وبناء على ذلك فإن فعّالية القراءة النقدية الحقيقية تكمن في تخلصها من النقد الوصفي والتاريخي، وفي تحررها من النقد التقليدي الموروث أو التابع للآخر... وتتجه إلى النقد التحليلي التكاملي الذي يفيد من الحقول الدلالية وتأويلاتها، فضلاً عن الإفادة من النظريات والمناهج المتعددة والقابلة للتطبيق، وإلا ستبقى القراءة مجرد انطباعات أو وصفات جاهزة ومعدة سلفاً. وفي مثل هذا الحال ستصبح القراءة

استنساخاً لما يكتبه الآخرون، فضلاً عن أنها ستغرق في الغموض والفوضى، أو في السطحية والعمومية... فأحكام القيمة المجانية والجاهزة تؤدي إلى كارثة أدبية ونقدية... وكل من يتحدث عن تلك المكاشفات ينبغي ألا يغيب عن باله أثر دُوْر النشر الخاصة والعامة في الانحياز لهذا الكاتب أو ذاك أو لهذا الناقد أو ذاك لأسباب كثيرة مادية وفكرية و... ؛ إذا تجاهلنا أثر الرسالة التي تتبناها، ومدى ارتباطها بالأهداف الكبرى للثوابت الوطنية والقومية؛ وللقيم الإنسانية والأخلاقية... فكم من دار للنشر لم يكن لديها همٌّ إلا الربح المادي ما جعلها تُقبل على موضوعات إبداعية دون إبداعات، وأياً ما تكن قيمتها الفنية والأدبية والنقدية و...

ونرى أن أي ناشر يمكنه أن يصل إلى الربح المادي فقط، لمجرد اتباعه الأساليب الملتوية العديدة، ولكنه في النهاية يكون هو الخاسر، أما الناشر الذي يحمل رسالة أخلاقية في تبني الكتابة الإبداعية المتميزة فسيكون الرابح في مختلف الأحوال مادياً وأخلاقياً واجتماعاً ووطنياً وإنسانياً.

ومن هنا فإن الرسالة المنوطة بمجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية إنما تحرص دائماً وأبداً على أن تعايش المشهد الأدبي والثقافي والنقدي والإعلامي على المستوى الوطني والقومي والإنساني، وتتفاعل مع الأقلام المبدعة التي آمنت بالقراءة الواعية والعلمية والمنهجية المنفتحة على ثقافة الآخر دون أن تذوب في ثقافته وفلسفته...

ولعل هذا العدد من المجلة يُعَدُّ مكاشفة حقيقية للقراءة المتنوعة والأصيلة في اتجاهات معرفية وأدبية شتى. ولا شيء أدل على هذا من بحث (دلالات الأزهار وجمالياتها في ديوان: ما أقل حبيبتي)، فقد حاول استعراض نماذج من الشعر العربي القديم والحديث التي عرضت للأزهار ومن ثم بين دلالاتها وانتقل بعد ذلك إلى ديوان الشاعر ليعرض لها من خلال الظواهر الأسلوبية المدهشة والتي دلت على عفوية كبرى عند الشاعر.

ولعل بحث (الأثر اللغوي في الحكم الفقهي) الذي توقف عند آية من آيات القرآنية قد أجلى أثر اللغة ودلالتها الأسلوبية في استعمال بعض العبارات دون بعضها الآخر، ما يعني إيضاح الجوانب الجمالية المثيرة لاستعمالات اللغة.

وربما يتقاطع بحث (أثر الجهارة في التبليغ والتواصل عند العرب القدامى) مع البحث السابق في دراسة الظواهر الأسلوبية، إذ توقف عند سمات الأداء الكلامي للعرب القدماء، وخص منها سمة (الجهارة). وبين سبب إعجابهم بجهارة الصوت، فرأى أنها جزء من عملية الاتصال والتواصل؛ حتى صارت إحدى السمات المُهمة النفسية والاجتماعية والثقافية للشخصية العربية.

وكذلك تناول بحث (المكان من الطبيعة إلى الثقافة: مكة المكرمة رمزاً في الشعر السعودي الحديث) مسألة الثقافة الدينية للمكان وتشكيله للوعي المعرفي الإنساني.

ويظل للشعر التعليمي أثره العظيم في تكوين ثقافة الأفراد والأمة وإثراء أساليبهم وهذا ما سعى إليه بحث (الشعر التعليمي: بداياته، تطوره، سماته).

ويأتي بحث (دراسة في الترجمة العربية لمنطق الطير) في سياق تبادل المجالات المعرفية والفنية بين الشعوب ولغاتها وآدابها. وقد أبرز هذا البحث مدى تأثر فريد الدين العطار النيسابوري في رسالته (منطق الطير) بالآراء العرفانية التي أسسها الشعر العربي وتراثه، ومن ثم بيّن هذا البحث المصادر الأصلية للعطار، بمثل ما بين الأساليب الإبداعية في عرض فكرة صوفية أغنت التراثين العربي والفارسي.

ويأتي في هذا الإطار بحث (العلاقات السورية – الإيرانية) ليثبت ما تفرضه الصلات السياسية والاقتصادية بين البلدان بحكم المصالح المشتركة على العلاقات الاجتماعية والثقافية، فضلاً عن التأثير الجغرافي، ما يجعل المحيط الجيوسياسي الواحد يفرض تاريخاً مشتركاً بين البلدان المتجاورة، وهذا ما يتضح لنا من خلال العلاقات السورية – الإيرانية.

ويبقى بحث (دور الوعي الأخلاقي في البيئة الحياتية) متفرداً في حديثه عن تطور الوعي الأخلاقي الموازي للتطور التقني، وهذا التطور يحدث مشكلة حياتية مع البيئة التي تنبثق فيها أدوات التقنية، ما يؤدي إلى تأثر القيم بتلك الأدوات، مما يدفع الباحث إلى توجيه المسؤولين لتحمل المسؤولية في هذا الاتجاه لئلا تنهار القيم الأخلاقية الموروثة.

وربما يقع بحث (انثروبولوجيا الهاتف المحمول) في صميم التطور التقني الذي يأخذ مكانته الخاصة في العلاقات الاجتماعية وتكوين ظواهر جديدة تتحكم بالمجتمع، لتصبح من بعد ثقافة تتصل بالثقافة التي أنتجت هذه الأداة التقنية، ومن ثم تغدو من أهم الوسائل المؤثرة في الحياة.

وكذلك نرى في بحث (الاختزالية من إبيستمولوجية الواحد إلى نظرية كل شيء) الذي يكشف عن آليات إنتاج المعرفة العلمية اختزالياً، إذ توقف عند مفهوم (الردّ) وهو إرجاع الشيء إلى عناصره الأصيلة وتخليته من العناصر الغريبة عنه.

ولم يغب عن هذا العدد بحث جغرافي مهم يتحدث عن (مشكلة التوسع العمراني العشوائي حول المدن السورية وعلاجها). فقد رصد هذه المشكلة منذ عقود عديدة، وأثبت عظمة آثارها في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للسكان.

ولما كانت الترجمة سبيلاً معرفياً كبيراً تبينا السبب الذي يكمن وراء بحث (لماذا يعزف المترجمون عن ترجمة الشعر). فالبحث يركز القول في الأسباب التي تؤدي إلى عزوف المترجمين عن ترجمة الشعر، على حين تركز على مصنفات نقد الشعر، ولاسيما ما يتعلق بظاهرة التناص، على اعتبار التوجه التداولي السيميوطيقي للغة الشعرية.

وهكذا يستقر المقام عند بحث (ما يحيط بالنص – مدخل إلى نص محتمل) وقد عالج مصطلح النص وما يحيط به، وبيّن أول من استخدمه.

وهناك بحثان آخران في اللغة الإنكليزية أولهما مفهوم (التعدي) في مسرحيات هارولد بنتر، والثاني توقف عند رواية (أحياء في البحر الميت). والبحث مقاربة لنص روائي يحتفي بالمرجعيات الثقافية والإيحاءات التاريخية والسياسية والاجتماعية... ثم بيّن أثر غياب المعايير في ترجمة نص ما، والأغلاط التي يقع فيها المترجم.

وأخيراً حمل هذا العدد من مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية بعض المراجعات وأبحاث للماجستير والدكتوراه...

ولا يسعني إلا أن أقول: يتوجب علينا ألا نقع في مطبّ الرهان على أي مشهد ثقافي أو أدبي نقدي أو... إن لم يتحول إلى مشهد كوني مؤثر وفاعل في الحياة والثقافة والفكر والأدب و... ولعل في التنوع الذي اشتمل عليه هذا العدد ما يفي بحرية الانتقال إلى الأفكار وبيان قيمتها لتكون منطلقاً إلى أحكام القيمة المؤسسة للقراءة الواعية وهذا ما نتركه لك أخي القارئ.

الأستاذ الدكتور حسين جمعة